في سبيل عالمية الشعر العربي

انتهى المديح فظهر الشعر الجديد !

بقلم الدكتور جميل خياط

أول حركة موسعة لشل فنية الشعر العربي واعاقة نموه وتطوره بدأها نابغة بني ذبيان ، وكانت الاسباب التاريخية توطىء لهذه الحركة وترحب بها ويعمل الحكام على تشجيعها لاغراض شخصية فقد تمدحوا كثيرا وغالوا في ذلك .

« وكانت العرب لا تتكسب بالشعر » ، حتى أتى هذا النابغة « فمدح الملوك .. وخضع للنعمان .. فسقطت منزلته وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة » ، وقصد الاعشى ملك العجم « فأثابه وأجزل عطيته .. على ان شعره لم يحسن عنده حين فسر له بل استهجنه واستخف به » ، « .. فأما الحطيئة فقبح الله همته الساقطة على جلالة شعره .. ثم انه أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه » (١) .

فالتكسب بالشعر مستهجن ، وهو كما يرى النقاد العرب القدماء : انحطاط وخضوع ، على ان الشعراء كانت ترى الاخذ ممن دون الملوك عارا ، فالكرامة كلها عند الملوك والمهانة فيما عداهم من الامراء والحكام ، ولم يكن لغير أولاء وأولئك مكان في أذهان الشعراء .

فتح النابغة الباب على مصراعيه ووطأ لهذه الطريق الطويلة ، ومرت أعوام واذا بالشعراء يقفون على الاعتاب ينتظرون الاذن بالدخول وتقبيل الارض ثم الانشاد والاياب بالاعطيات وأكياس النقود ، وأخذوا يتسقطون أخبار الكرماء من الحكام في الامصار فلا يضعون العصا عن عواتقهم حتى ينظموا فيهم الاماديح . ولم يهتم هذا الفريق من الشعراء انهم يخونون بمديحهم الكاذب أنفسهم وانسانيتهم ومواهبهم ويضيعون علينا وعلى التراث الجهد الكثير ويصرفون طاقاتهم في ارضاء هؤلاء الحكام الذين سرهم الثناء ، ولم يلتفت الحكام الى انهم باغداقهم الاموال على الشعراء قد شجعوا على الكسل الجسمي والعقلي ، وعلى التزييف والنفاق ، ولم يكن الشعراء بغافلين عن هذه الفعلة فهم يعرفونها كل المعرفة ، فأبو تمام مثلا يقول انه يكذب في بعض أماديحه :

ومتى مدحت سواك كنت متى يضق
عني له صدق المقالة أكذب

وقبله جرير كان يمدح ويهجو ويشكو بمرارة قائلا :

لولا ما شغلني من أمر هؤلاء الكلاب — يعني الشعراء الذين تبادلوا معه الهجو والسباب — لشببت تشبيبا تحن منه العجوز الى شبابها حنين الناقة الى سقبها . وهكذا ضاع تشبيب جرير بين الكلاب والملوك هاجيا ومادحا ولم تحن عجوز الى شبابها ، لقد كان الشاعر محقا في شكواه وان كتم نصفها خوفا .

ولقد اعتبر الفزل ضربا من المدح أحيانا : « قال سليمان بن عبد الملك لعمر بن أبي ربيعة : ما يمنعك من مدحنا ؟ قال : اني لا أمدح الرجال انما أمدح النساء » (٢) .

ولم يكن لبعض الشعراء المداحين شخصيات مستقلة مميزة ولم يتخذوا موقفا في هذه الحياة سلبا أو ايجابا صعودا أو نزولا ، لذا افتقدنا في أماديحهم شيئا كثيرا من الاصالة ، فأبو نواس الذي هاجم افتتاح القصائد بالوقوف على الطلل وأتهم بالشعوبية والمجون يعود فيبدأ أماديحه بالبكاء على الاطلال لانه ضاق بتلك الاماديح ذرعا فقلد فيها واضطر اليها واكثر منها فأمدته بالنقود التي احتاجها في تردده على الحانات القابعة وسط البساتين الكثيفة يعاقر الخمرة مع ندمانها الحسان لاكثر من ليلة أو ليلتين حتى كان يبيع في سبيل ذلك ربطته وحذاءه وشعره ، والا فأي مهزلة تكمن في مخاطبته الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى انه
لتخافك النطف التي لم تخلق

وهل صدقه الرشيد ؟

ولجأ الشعراء الى حشو أماديحهم بالوعظ والارشاد والحكمة والمثل العليا ولم يخرجوا عن ان الكريم بحر خضم وان انبساط يده عطاء :

واذا اهتز للندى كان بحرا
وان اهتز للردى كان نصلا
واذا الارض أظلمت كان شمسا
واذا الارض أمحلت كان وبلا

وأدت التجزيئية في فهم الاخرين لقصائدهم ، واستقلال البيت في القصيدة للقرار الذي توقعه القافية ، ووهج الذهب الذي يأخذ بالابصار ، الى انهم لم يحاولوا أن يدرسوا شخصيات ممدوحيهم بعمق ويبرزوا النواحي

(١) انظر العمدة لابن رشيق ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨٠-٨٤ .

(٢) الاغاني ، « كتاب التحرير » ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤٠ .

الخاصة بهم وبأفكارهم ومشاعرهم ، فكرروا المعاني القديمة في ان الممدوح كريم شجاع وفي لاخوانه ، ولم يتطور المديح الى عمل فني قصصي أو ملحمي مثلا او الى دراسات نفسية خاصة او الى أخبار تاريخية نستعين بها في تفهم الممدوح أو تشخيص الجو الذي عاشه .

واتخذ بعض الشعراء من الهجاء وسيلة للتكسب أيضا . « قيل ان عمر رضي الله عنه قال للحطيئة : اياك وهجاء الناس . قال : اذن يموت عيالي جوعا ، هذا مكسبي ومنه معاشي » (٣) ، وبشار بن برد زاول الهجاء فتكسب حتى ضرب سبعين سوطا فمات أبشع ميتة ، ولقد أضر به الكرم و « حمله العطاء الكثير على الانفاق الكثير » (٤) ، فهو في هذين البيتين أمدح الناس كما يرى ابو العلاء المعري (٥) :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى
ولم أدر ان الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

وهكذا أصيب بشار بمرض السخاء .

والمتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وما يزال بشعره الاصيل ذي النفس السليم ثار على المديح ولكن داخل اطار هذا الغرض الشعري ولم يخرج من هذا الاطار بالرغم من قوله :

الى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد

فلا بأس أن يباع في سوق رائجة ، لقد ثار هذا الشاعر ثورة لم تمس جوهر المديح في شيء انما مست حواشيه وظواهره ، فقد كان أول شاعر جلس أحد ممدوحيه بين يديه ، واشترط على سيف الدولة أن لا ينشده واقفا وأن لا يقبل الارض بين يديه فكان كمن يغالي في مهر فتاة حسناء ، وقد أدت هذه المغالاة الى القطيعة المشهورة بينه وبين سيف الدولة ، وبالرغم من روائع المتنبي ، لا أستطيع أن أتفهم شخصية سيف الدولة ، ولا تبدو لي رؤياه الا كريما شجاعا أبيا فاق الانام قدرة ، وهذا ما عرفناه عن كل الملوك والامراء .

وأدى المدح والقدح الذي مارسه المتنبي الى أن يطمس بقصيدة واحدة هجا بها كافورا الاخشيدي أول معالم ثورة ناجحة في التاريخ قام بها عبد مملوك ضد أسياده الاحرار ، وما زال عبيد كل العالم يحاولونها اليوم ، لقد محت كلمات المتنبي : « لا تشتر العبد » هذه الثورة التاريخية فلم يعد الناس يذكرون الاخشيدي الا بالضحك والاستهزاء والاذن الدامية بيد النخاس ، فأية سطوة لهذا الشعر بين الناس أخافت حتى المستبدين ؟!

لقد حصل المتنبي من سيف الدولة على ٣٠٠٠ دينار في السنة لثلاث قصائد فقط يقولها في مدحه ، وهذا المبلغ لا يمكن لمن يمارس الشعر والادب اليوم ان يحصل عليه لقاء ثلاث قصائد يكتبها ، وحتى الاديب المسرحي برنارد شو الذي كانوا يقدرون لكل كلمة يؤلفها ثمنا معينا من المال لم يحظ بذلك ...

ولقد كان المتنبي الثائر أبدا يحس بالمهانة فيتمدح في أماديحه ويثني على نفسه ويفخر بها ويغمز من قناة الممدوح أو يهينه أحيانا ، وهذا ما حدث مع سيف الدولة والاخشيدي وغيرهما ، ولو لم يكن المتنبي يحتاج التكسب بالشعر لحصلنا على قصائد جيدة في مجالات أخرى أو ملاحم رائعة في عالم الفروسية والحرب . وكان سيف الدولة راضيا كل الرضى — ولم يكن مغفلا — بدفع هذه المبالغ لشاعره ، وهو الذي لم يدفع لابي الفرج الاصبهاني على موسوعته المشهورة « الاغاني » سوى ألف دينار ، وقد آذاه في أخريات علاقته مع المتنبي ان لا يمدحه الشاعر فأمر من ببابه من الشعراء أن يمدحوه ففعلوا وأرضوا في نفسه حب الاستعلاء والسطوة والظهور .

والاهم من ارضاء مشاعر الممدوح ومداعبتها هذه الدعاية الواسعة التي ينشرها الشعر بين الناس الذين يقبلون على حفظه ولا يهمهم أكان الشعراء صادقين في أقوالهم أم كاذبين ، لقد كانوا يريدون فقط أن يتمايلوا مع الوافر والمديد ويقتطعوا من القصائد أجزاء متناثرة تفيدهم في حياتهم اليومية من مواعظ وارشادات وحكم يقولونها في معاملاتهم الاعتيادية حين يريدون تأييد وجهة نظر معينة تعود عليهم بربح وافر .

وكان المديح وسيلة للتكسب وللدعاية ولارضاء الغرائز ، وصح فيه — الا أقله — أن يرمي الى أية غاية سوى الفن الاصيل والابداع والخلق ، المديح خسارة جهد وتبديد لطاقات هؤلاء الشعراء الكبار وتشويه لمواهبهم الشعرية .

وانتقل المديح الى الاندلس وأكثر الشعراء منه بالرغم من الغناء والطبيعة الساحرة ، وعاب النقاد القدماء على ابن هانيء غلوه في المديح ، « وكان الشعراء يغرقون في المديح ويسرفون فيه دون مقياس أو ضابط حتى تصبح قصائدهم ولا صلة لها بشخص قائلها أو المقولة فيه ، ومن الميسور جدا جعل معظم هذه المدائح بأسماء غير من قيلت فيهم بعد تحوير طفيف » (٦) .

وظل باب النابغة مفتوحا طيلة أربعة عشر قرنا تدخله أفواج كثيرة من الشعراء المرتزقين ، حتى ان مصاريعه اقتلعت خلال الفترة المظلمة ، فقد أصبح لا يتسع للوافدين ، وأكثر الشعراء من المدح وتجولوا بين مأتم

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٣٥ .
(٤) محمد مهدي البصير ، في الادب العباسي ، بغداد ١٩٥٩ ، ص ١٤٦
(٥) الاغاني ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .
(٦) غارسيا غومس ، الشعر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ١٠٤

وآخر وبين عرس ووليمة بقصائد تتبدل أسماؤها ما بين ممدوح ومرثي ، وجاءنا القرن التاسع عشر بموجة من المديح هادرة ، وظهر شاعر كالاخرس عرف بشخصية لطيفة ولكن بديوان من الشعر فيه : ٤٨٥ صفحة و ٣٣٢ قصيدة مجموع أبياتها ١٠٤٨٥ بيتا منها ١٩٧ قصيدة في المديح مجموع أبياتها ٨٢٣٣ ، أي ان اكثر من ٧٩ ٪ من شعره أماديح ، ولو قرأنا مديحه كله لما خرجنا بأكثر من ان الممدوح كريم شجاع وفي لاخوانه (٧) .

وأطل علينا القرن العشرون وفي اهابه رؤيا ثائر موتور يريد ان يودي بالمديح وأن يوارب الباب الذي فتحه النابغة الى الابد .

وتمثل هذا الثائر بالمخترعات الحديثة التي وفدت علينا كالطباعة والصحافة ووكالات الانباء والتلفزيون والراديو والسينما ومكبرات الصوت ... الخ ، وانهالت على الشعراء المتكسبين المطارق : بأن الحكام لم يعودوا بحاجة الى الشعر لتثبيت أركان حكمهم واشاعة أعمالهم الباهرات بين الناس ، لم يعد الشعر وسيلة للتكسب ، وآن لهذه الحركة التي بدأها النابغة وغذاها التاريخ أن تنتهي ، وبدأ الشعر يتخلص ولاول مرة من هذا الغرض النثري الاجدر بالنثر وبوسائل الدعاية الحديثة .

فهل سلم الشعراء المرتزقون بهذه الحقيقة ؟ ووراثة وتجارب أربعة عشر قرنا في المديح هل استطاعوا أن يتخلصوا من تأثيرها بسهولة ؟ لا .. وأصر هؤلاء الشعراء على مواقفهم فأبدلوا الممدوح القديم بممدوح جديد ، كانوا يشيدون بمحاسن ملك أو حاكم فأصبحوا يمدحون حزبا أو جماعة ، والمسألة التي تهمنا في كل هذا وذاك هي هل ان شعرهم هذا كان شعرا حقا ؟.. كانوا يستمدون قوتهم من رجل واحد فأصبحوا يستمدونها من رجال كثر ، وتحول أحيانا شكل الاعطية من كيس نقود الى منصب ذي مرتب دائم وجاه وسطوة بين الناس ، وأصبح المادح ممدوحا في وقت واحد ، فمن تبنى نزعة معينة أيده فيها وأثنى عليه كل المؤمنين بها ، وأصبحت المقاييس النقدية الصحيحة غير مجدية ، وحكم الناس على هؤلاء الشعراء تبعا للاراء التي بشروا بها لا لما في أعمالهم من أصالة وابداع . « ما نسميه اليوم ، شعرا جديدا ليس كله جديدا . فالشكل غير القديم لا يعني ، بالضرورة ، انه جديد . ثمة شكل جديد ، ظاهريا ، يحمل نفسا قديما . وثمة شكل قديم ، ظاهريا ، يحمل نفسا جديدا ، فالفرق بين القديم والجديد لا نلتمسه ، بالضرورة ، في الشكل ، بل في الروح ، في الحضور الشعري الشخصي الجديد الاصيل ، تعبيرا ورؤيا » (٨) . الا ان طريق الشاعر القديم كان سليما أمينا ، أما طريق الشاعر الحديث فقد حف بالمخاطر والتقلبات وأحيانا بالرؤيا الكاذبة أيضا ، ولا يعني هذا ان الشعراء ، كل الشعراء ، قد ساروا في هذا الدرب والا فاننا لا نستطيع أن نتناسى دور الشعراء الذين أبوا المديح والتمدح وهم كثر في كل زمان ومكان وان عوقبوا أحيانا بالنسيان جزاء اخلاصهم لانفسهم ومواهبهم .

وظهر تأثير المديح المتوارث أحيانا في شكل حب الشاعر لنفسه ومدحه لها وبكائه لتعاستها بأساليب جديدة ! وبرز هذا التأثير بشكل اخر حين تحول المدح الى قدح وهما في ميزان الشعر سواء ، فكان بعض الشعراء قبل الحرب العالمية الثانية يهاجمون كل شيء .

ولكن لم كل هذا وعبر هذه القرون السحيقة ؟ ان المسألة تكمن في ان فريقا من الشعراء لم يستطيعوا ان يقفوا على أرجلهم كأناس ذوي عالم خاص مميز ، انما احتاجوا دوما وأبدا الى عكاز ، وهذا ما أضر بتطور الشعر واعاقته أن يكون عالمي النزعة والجو . واختلط العامل الاقتصادي بالعامل الفني فخسر تراثنا ابداعات كثيرة ليعيش بعض الشعراء في بحبوحة وهناء .

وقد حاول بعض الشعراء أن يقفوا فوقعوا ، وهذا ما حدث للسياب فكان الشهيد الاول ، ولاخرين غير السياب مالوا بين دعامتين او اكثر يستندون الى هذه أو تلك كلما عصفت بهم الرياح . أو أن ينحسروا الى تدريس الادب العربي في جامعات طلابها لا يحسنون استعمال حرف الجر .

وبالرغم من كل هذا وذاك فقد انتهى المديح ، لقد قضت عليه المخترعات الحديثة .

ولقد صاحب عملية « المخترعات والمديح » تطور سريع وانفعال دائب لا هوادة فيه وخرج الشعراء من القصر ووجدوا أنفسهم عراة في عصر أطاح بكل استمرارية المظاهر المتعاقبة من جيل الى جيل ، وأثبت بعض الشعراء ان لهم عوالمهم المميزة فأخذوا يبحثون عن مضامين جديدة ، وتاهوا في هذا الفراغ المخيف الذي أحدثه اختفاء المديح ، واتصفت تجاربهم أحيانا بعشوائية واستقلال في البحث والتنقيب أدى بهم الى محاولات فردية مستقلة كانت أحيانا تحمل معها بذور فنائها وذات تهويل مبالغ به وانفعال لا مبرر له .

ان الاغراض الشعرية المعروفة من مديح وغزل وهجاء ووصف ورثاء كانت متماسكة متشابكة منذ فجر الشعر العربي ، « فقد ظلت على نشأتها الاولى لم تتدرج الى فلك أسنى من الفلك الذي ولدت فيه ، وعاشت في ظلاله ، الا في النادر القليل » (٩) . الا ان اختفاء المديح أحدث اضطرابا في هذه الاغراض يكاد يعصف بها جميعا ووجد الشاعر الحديث نفسه يكرر الماضي اذا ما التزم بها فأراد أن يبحث عن مضامين جديدة ، الا ان هذه المضامين التي أوجدها الشعراء في يومنا هذا لم تتطور تماما عن

(٧) انظر الطراز الانفس في شعر الاخرس ، نشره محمد عزة الفاروقي ، استانبول ١٨٨٦ .

(٨) أدونيس ، مجلة الاداب ، العدد الثالث ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٣ .

(٩) عزيز أباظة ، من مقدمة لكتاب الشعر العربي في المهجر لمحمد عبد الغني حسن ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨ .

الاغراض الشعرية القديمة ، فقد أثرت فيها الثقافات الاجنبية التي وصلتنا عن طريق الترجمة أو المعاناة الشخصية ، ففي الفترة التي تقلص فيها المديح وانحسر عن الشعر العربي وفدت علينا الاراء النقدية الاوروبية وآلاف من التراجم والدراسات ، فانفعل الشاعر الحديث بها وبدا عليه انه لم يصمد كل الصمود أمام فترة الانتقال القصيرة جدا ، فليس من السهل أن يختفي الهجاء فتظهر العنقاء أو يسكت الرثاء ليتحدث سيزيف ، انه أمر غير طبيعي ايضا ، ولكن سمة الكفاح واضحة في الشعر الجديد ، وشرف المحاولة أروع ما حصل عليه رواده الشجعان حتى الان ، وأهم ما يمكن أن يعيق من نماء هذه المحاولات وتطورها هو التقليد الذي يمارسه مئات الشعراء اليوم لهذا النوع الجديد من الشعر . فالنفس السيابي واضح في كثير مما ينشر من هذا الشعر في صحفنا اليومية ، ومعروف ان السياب وأضرابه كانوا على معرفة تامة بالشعر العربي عبر عصوره فنهلوا منه ونظموا على طريقته بجدارة ، الا ان هؤلاء المقلدون يعتمدون في مقدراتهم الشعرية على ما قراوه للسياب وزملائه فقط .

« ان الشعر المنطلق ـ على ما فيه من نقص وفجاجة ، وعلى كثرة من دخلوا بابه من أدعياء المتشاعرين ـ هو وحده مناط الامل في مستقبل خصيب لشعرنا العربي ، وهو النتيجة الحتمية لكل ما سبقه من محاولات منذ أواخر القرن التاسع عشر في تجديد هذا الشعر وبعث الحياة فيه وجعله أكثر قياما بحاجاتنا الجديدة الروحية والفكرية والجمالية والاجتماعية » (١٠) أما هذه الموجة العارمة التي تحاربه بكل الوسائل فهي من حيث لا تدري تدفعه الى الحياة والنماء والتمرد ، تثبت أقدامه فيكتسب دوما مؤيدين جددا .

ان ما يلف شعرنا بدوامة عاتية ويعيق سبيل عالميته هو انه كان في كثير من مظانه وسيلة وليس غاية ، لم يكن عملا خلاقا مبدعا انما كان وسيلة لكسب مادي أو شهرة او تثبيت وجهة نظر ، واذا ما تجرد عن هذا وذاك فهو أحيانا يعبر عن تأكيد ذات الشاعر المتهاوية . ان المديح الذي لم يرتفع الى مستوى المصدر التاريخي لكثرة مبالغاته وتكرار معانيه يوضح لنا بسهولة ان فريقا من الشعراء مارسوه كوسيلة ولم تكن هذه الوسيلة مشرفة اطلاقا ، ولا يمكن ان نخلق للشاعر أعذارا بيئية او اقتصادية ، فالدراسات النسبية في عالم الفن مرفوضة ، ان من شجع المديح الكاذب ومنح الشاعر أعطيات وأغدق عليه النعم كان أقل شأنا من الشاعر المداح واكثر دناءة منه . ولو صدر تشريع قانوني قبل مئات السنين يحرم على الشاعر ان يمدح ، ولو منح الشاعر مرتبا دائميا طيلة حياته لاصبح دون شك شعرنا عالميا ، وان كانت الدراسات الموضوعية تتأبى أحلاما كهذه .

اذا ما أردنا لشعرنا النماء فما علينا سوى أن ننظر الى المستقبل بتفاؤل ، مستفيدين من كل تجارب الماضي ، وأن نفسح المجال لكل محاولة ، وأية محاولة فاشلة أو مدسوسة ستنهي نفسها بنفسها ، ولا داعي للخوف من محاولات غير أصيلة . ان تراثنا العربي الخالد لا يمكن لمحاولة مزيفة ان تنال منه . لقد تخلصنا تبعا لسنن الحياة من المديح المأجور وعلينا اليوم ان نتخلص من شيء اخر هو النفوذ الجنسي الذي يسود قسما من انتاجنا الادبي فيجعله يدور في اطار معروف تتحرك فيه حاجة غريزية ليس فيها من الرؤيا والشعور الخاص الا ما يتساوى فيه الناس كلهم .

ان الاثار غير المستجدية متعبة ، ترهق التفكير ولا تدخل النفس بسهولة ، ولا تستدر العطف ولا تثير الدموع ، وذنبها انها تطلب منا أن نتعناها وأن نعيشها ، وبعضنا يؤثر عافية الاغفاء والحلم ، فالى عمل دائب في سبيل عالمية شعرنا العربي ولنتطلع الى طريق رحب يشقه الشاعر الحديث وحده .

جلال الخياط

بغداد

(١٠) محمد النويهي، مجلة الاداب، العدد الثالث، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٤

صدر حديثا

دراسات

في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب